

العدد الرابع

نيسان (أبريل)

السنة الثامنة

8ème ANNEE

No. 4 Apr. 1960

الأدب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ - تلفون ٣٢٨٣٢

AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE

BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123

Tél. 32832

رئيس التحرير

والمدير المسؤول

الدكتور سويل ادريس

[Rédacteur en chef et
directeur

SOUHEIL IDRIS

تاريخ بين القومية والانسانية

بقلم الدكتور عزت عنان

الوحدة والشمول ، فهو يسعى عن شعور او غير شعور الى الخروج من المغلق الى المفتوح ومن الخاص المحدود الى العام المطلق . بذلك انتقل من عصبية الاسرة والقبيلة الى قومية الامة وهو مسير في الطريق نحو عالمية الامم او اممية العالم .

فما هو موقف التاريخ كعلم من هذه المسبقات ؟ الا يمكن ان يكون طور الامة هو طور الاكتمال ، والبلوغ اليه اشبه بالتطور من الطفولة نحو سن الرشد ؟

الفلسفة تقول عن تصور والتاريخ يقول عن تثبيت . ماذا يروى التاريخ عن محاولة سحق القوميات فسي ظل الامبراطوريات ؟ هل كان ذلك طبيعيا ومطابقا لسنن الكون ؟ واذا كان طبيعيا فلم لم يستمر في الوجود ؟ بينما خرجت القومية دوما ظافرة مكينة البقاء .

والمحاولات الروحية للمؤاخاة بين البشر والوصول بهم الى المدينة الفاضلة التي حلم بها الطوباويون ، هل نجحت في محو القوميات ؟ ام على العكس كان الدافع اليها تثبيت القوميات وتعزيزها عن طريق القضاء على مهدداتها ؟ تجربة الاجابة عن بعض هذه التساؤلات هو موضوعنا . وشاهدنا هو علم التاريخ .

سنحاول اولا التدليل على اهلية هذا العلم للشهادة وتبرير وجوده وتأكيد ضرورته للقومية والانسانية بالذات . وسنعمد ثانيا الى عرض فيلم كلامي عن تاريخ تلك القومية والانسانية .

التاريخ ضرر ام ضرورة

ولعلي استبقت الامور ووضعت المحراث امام الثور كما

ما أكثر ما ينهمر الحديث في دنيا العرب اليوم عن القوم والقومية والعرب والعروبة والانسان والانسانية ، سواء في المعترك السياسي ام على المستويات الادبية والفلسفية .

ولا نكران ان هذه القضايا من التشعب والتشابك بحيث تبرر خصب البحث وتنوع القول . على ان وضوح المفاهيم لا يتناسب في الغالب مع وفرة الشروح . . وقد توغل الفكرة في الغموض بقدر ما يطرح عليها من الحواشي والتفاسير ولست اطمح ان اخرج عن هذه السنة . .

والموضوع ، ليس جديدا ، ولعالي ان اتى فيه بسوء جديد ، فيما خلا اثاره المزيد من التساؤلات . واذا كان لا مفر من البدء بالبداية ، اي بالتعاريف . فلنقدم المثال قبل الاحكام :

في وطننا الكبير شعوب تناثرت اوصالها ، وتحكم فيها الاعاجم والأتراك والافرنج مئات السنين ، وبقيت رغم ذلك وفيه للفتها او مثلها وترانها . في كل بلد للعروبة ظلت قلوب تهفو الى معانقة قلوب ، ووجوه ترنو الى لثم وجوه وايد تسعى الى مصافحة ايد شقيقة حانية . .

القومية ليست الا هذا . . . مهما عمقت الفلسفة جوانبها ، وضخم المجهر عناصرها . والانسانية في داخل القومية تعني بكل بساطة ان نعامل ابناء قومنا بما نحب ان يعاملونا به ، وفي الاطار الخارجي ان يتعامل قوم مع الاقوام الاخرين بمثل ما يودون ان يكون التعامل معهم .

يجهد الفلاسفة ان يثبتوا نزعة الانسان الطبيعية الى

يقول المثل الفرنسي فجزمت بوجود شيء اسمه علم التاريخ قد لا يكون له في نظر العارفين اي كيان حقيقي ، والواقع ان التاريخ مدون عند جميع الشعوب ان لم يكن في الاسفار ففي الصدور على أضعف احتمال . ولكن تدوين الحوادث شيء وتدوينها على حقيقتها شيء آخر . واثمك يطرأ على التاريخ من هذه الجهة .

ويطراً عليه ايضا من جهات اخرى ، وهي بالذات الجهات المتصلة بالقومية والانسانية .

يقول المرتابون : ما جدوى معرفة الماضي ؟

ويخلص بعضهم من الشك الى اليقين فيقرر بان التاريخ يديم الاحقاد ويحفظ حرارة البغضاء بين طوائف الامة الواحدة وبين الامة وغيرها . وبذلك يمنع السلام من ان يستوي على الارض .

واقبل المنددين ضراوة ياخذون على التاريخ تجميد الامم على موارثها العتيقة ، وخنق الاحياء تحت كابوس الملايين من الاموات ، وتعطيل قوى التقدم والابداع ، وبالتالي تعريض المجتمعات الى التخلف ثم التهافت . .

واخيراً هنالك الذين يتساءلون : هل يمكن الحياد في التاريخ ؟ وهل يستطيع المؤرخ ان يتحرر من عاطفته الوطنية والقومية بل والشخصية ؟ واذا أمكن كل ذلك فهل هذا التحرر شيء مرغوب فيه ، ولاسيما في التربية والتعليم ؟ ولقد تصدى للدفاع عن التاريخ علماء في كل امة من الامم . وكتب بلسانهم الاستاذ (لويس هالفن) في مؤلفه (المدخل الى التاريخ) المنشور عام ١٩٤٦ فقال : « لم تؤلف كتب في التاريخ بعدد ماؤلف في ايامنا ، ومع ذلك لم يجحد نفع الدراسات التاريخية بقدر مايجحد في زماننا . لقد اصبح رائجا ان يهزا من المؤرخين في عبث الجهود التي يبذلونها ، وان تنكر كل قيمة علمية لاعمالهم . » ورد الاستاذ هالفن على ذلك يتكشف في هذه الجملة المعبرة :

« انه لمن الاسهل ان يشتم التاريخ من ان يستغنى عنه . » وقد يتخذ الطعن في التاريخ شكل العبث الهازل ، وهو يخفي وراء الابتسامة العريضة اقمم الوان النقد والتجريح . من ذلك ماكتبه عن المؤرخين الاديب الاميركي الساخر (مارك توين) .

زعم ذلك الاديب انه دعي الى القاء محاضرة على جمع مهيب من شيوخ المؤرخين ، فاختر عنوانا لمحاضرتيه « فن الكذب في انحطاط » وقال فيها :

« لست ازعم ان عادة الكذب تعاني ضعفا او تشكو انحطاطا ، فالكذب هو مبدأ خالد وفضيلة ازلية . وفي الكذب تسلية للمكروب وعزاء للعاني وملجأ امين للباس . ان الكذب صديق الانسان الاول ورفيقه الامل . .

ولا خوف على الكذب من الزوال وانتم في الوجود ، معشر المؤرخين ، وان كنت اشكو فما اشكو سوى انحطاط فن الكذب . . . واذا عالجت هذا الموضوع امامكم فاننا اعالجه على تهيب واستحياء ، فانتم معشر المؤرخين سادة

هذا الفن واشياخه . . ومثلي معكم كمثلي العانس لم تلابس الحياة تتصدى لتدريب قهرمانه عركها الدهر من بنات اسرائيل . . . وفي الحق لو كان لفن الكذب - اجمل الفنون الجميلة - انصار ، خلصون مثلكم كثيرون يشجعونه ويرعونه ويغدونه ويمارسونه ممارسة دائبة صادقة . . . لو أتيت له اندية كثيرة كناديكم هذا لما اعتراني الجزع وغلبني الدمع . . ولا اقول ذلك ممالة ونفاقا ، وانما هو الحرص على تقدير الناس حق قدرهم . . . »

الانسان حيوان مؤرخ

وبعد لا يعني هنا الدفاع عن التاريخ كعلم ، فالحقيقة في التاريخ يجب ادراكها . ومن الممكن ادراكها ، عن طريق جمع الوثائق ومقابلتها وعرضها على ميزان الفكر ، وتعريضها للجرح والتعديل .

والذي يعنيني تأكيده الان هو ان التجني على التاريخ لايرحنا منه ، لانه في نفوسنا قبل ان يكون في الكتب التي نقرؤها طوعا ، او تفرض علينا بطريق التعليم المدرسي . اللغة التي نطق بها والنغم الذي نهتز لسماعه ، والمنظر الذي يعجبنا ، والعادات التي تتحكم فينا ، وشكل الحكم الذي يسيرنا ، والثوب الذي نرتديه والغذاء الذي نقتات به . . كل ذلك تاريخ لانه نتاج تفاعل الحاضر مع ارث الماضي . وما دام للمرء ذاكرة يستند اليها في سلوكه ، فهو مؤرخ شاء ام ابى ، والتاريخ هو عنصر التوازن في شخصيته ولعل من ابرز صفات الانسان انه حيوان مؤرخ وموضع الفرد من اسرته ورهطه ودولته وامته ، وموضعه في العالم انما تحددته ظروف البيئة الزمنية التي وجد فيها . ولذا فان القومية هي ذاكرة قبل كل شيء ، وبتعبير اخر ان التاريخ هو ذاكرة المجتمع .

حياتنا صيرورة مستمرة ، هي نهر له نبع ومصب ، ولا يمكن ان يستغنى المصب عن المنبع . كل شيء في هذه الحياة هو تسلسل ، ونحن مدفوعون بغرائزنا الى تعليل الحوادث التي نشهدها او تقع لنا بهذا التسلسل . ان تعليل الحاضر ، بل ان فهم مشاكل الحاضر منوط بملاحظات ما قبل الحاضر مباشرة ، وما قبل الحاضر مباشرة هو التاريخ .

التاريخ والقومية العربية .

بعض المجددين منا يدعون الى الثورة على التاريخ وقطع جذور الماضي وبناء مستقبلنا الجديد على ركائز جديدة . واني لاتساءل كيف يمكن ذلك ؟ هل نشور على ما نجهل ؟ ولقد رد على هؤلاء صديقنا الدكتور قسطنطين زريق في كتابه الرصين « نحن والتاريخ » .

حتى الثورة على التاريخ - اذا كان فيه ما يثار عليه - تقتضي اولا معرفة ذلك التاريخ . ان اكثر المجددين تجردا واشد الثائرين ثورة ، لا قبل لهم بمحو الماضي ، كل الماضي ، بل لا مفر لهم من الاستناد اليه . قد يظن ان الثورات هي فصل ما نحن فيه عما كنا عليه

والواقع هو العكس . ليست الثورة سوى نتيجة لتخمر طويل . فهي حلقة وصل لانها في وقت واحد بدايئة ونهاية : نهاية عهد مدموم وبداية عهد مرجو فيه . ولولا العهد الماضي لما كانت الثورة ولما بدأ العهد الجديد .

لولا القيصرية الروسية لما كانت البلشفية . واذا محي تاريخ القيصرية ، كانت جمهوريات الاتحاد السوفياتي لغزا من الافراز .

وفي تاريخ امتنا . وفي تاريخ كل امة ، محامد ومثالب وليس دور المثالب باقل شانا في عبرة التاريخ من الامجاد والمآثر .

تذكر الخصومات والمنارعات الحربية والطائفية ضروره . لبيان اثرها في تفكيك القوام العربي ، وبالتالي دعوة الى التنكب عنها في الحاضر والاتي .

معرفة التفرقة الغابرة بدء المسير على درب الوحدة العتيدة .

ادراك عوامل التخلف التاريخية نقطة الانطلاق في التجديد .

وليس من دروس التاريخ الجهر في كل مناسبة بان الاستعمار الاجنبي سبب تجزئتنا السياسية . لقد كان التفتت ثم كان الاستعمار . او بالاحرى كان الاستعمار بسبب التجزئة ، فادامها وثبتها وعمق جذورها .

ونحن نغالط في التاريخ حين ننسب ضعفنا وتخلفنا الى المستعمرين الغاصبين . الحقيقة ، اننا ضعفنا وتخلفنا فاستعمرنا ، ثم امعنوا في اضعافنا وصدونا عن التقدم . تاريخ العرب سجل لانتصاراتهم ولتراخي عزائمهم . والقومية العربية ، المنطلقة اليوم على درب القمم ، تعرف طريق النصر لانها ذاقت قبل ذلك مرارة الهزيمة .

قصدت الى القول بان التاريخ القومي كل متكامل . فيجب ان لا يتر منه صحائفه السود . وان لا تصطنع فيه الامجاد وتضخم البطولات . .

التاريخ هو قبل كل شيء مدرسة للصدق . وليس من القومية في قليل او كثير بناء تلك القومية على اسس موهومة او مفتعلة ، والحقيقة هي دوما انفع للعبرة الوطنية من اختلاق الحقيقة .

والتاريخ العربي مزدهم بالمآثر . وليس من ضروره للمنه بالاساطير . ومن الخطر على القومية العربية بالسيدات التعويض عن نقص الحاضر باوهام الماضي .

تقديس ام تجديد ؟

واذا قلنا ان التاريخ القومي موضع عبدة واداة حفز وموئل اطمئنان ، فاننا نقول في الوقت ذاته : قد يكون ذلك التاريخ خميرة تجميد وعامل وقوف ووسيلة حجر على القوى المتفتحة للخلق والابتكار . .

عبادة الاجداد وتقديس كل قديم والحفاظ على معالم القرون الاولى في ظهيرة العصور الحديثة . . كل ذلك قاد امة الصين الى الانهيار .

والواقع ، ان في كل حضارة اسسا خالدة واخرى زائلة

كما اثبت العالم برديف . والمهم في بناء القومية تمييز العمدة الثابتة عن المظاهر المتغيرة .

وما يصح في النظم واساليب الحياة يصح في الاشخاص . ذلك ان التاريخ القومي كان ، ويجب ان يكون على الدوام . كنزا من التجارب المتجددة . كل كائن يتمثل اولا ماصنع اسلافه . وهذا هو معنى التاهيل الاجتماعي بالتاريخ . ثم يبدأ هو رسالته كإنسان ، فيضيف شيئا جديدا الى التراث القديم .

ولعل خير مانسوحى من الماضي تلك الطاقة المعنوية التي دفع المصلحين الى الاصلاح والمجددين الى التجديد . من ابطالنا الشجعان نستلهم شجاعتهم لا اساليبهم في الطغيان .

ومن علمانا الافداد نسمد مدرتهم على البحث والفوض لا ماوصلوا اليه بالفعل .

من الماضين تبقى لنا حماسه نبيلة وهيجان خلاق . . ولا يعني الاديبي الفرنسي « موريس باره س » سوى ذلك حين يقول :

« ان من واجبا بل من ضروريات حياتنا ان نحسب امواتنا . فاية قوة تنبعث عنهم . ايها الاموات كم انتم احياء ! . . . »

ان الفرد اذن هو امتداد لامته لا تكرار لها وهو متضامن مع الاجداد على اتمام مهمتهم لا على اعادة سيرتهم .

جراح تغني

اول ديوان تنبض كلماته بتجربة جيل بكامله

اول ديوان تالق في حروفه ما في شعوب ونضالات
اول ديوان يروي قصة اخيانات بصراحة
اول ديوان يتهد فيه جراح شهدائها .

جراح تغني
ديوان الشاعر السيد
كمال ناصر



دار الطليعة للطباعة والنشر

توزيع الشركة العربية للتوزيع

من الافتئات على التاريخ الزعم بأنه يتكرر بينما هو يتطور .

ومن الجهل بالحضارة الوهم بأنها اعادة مستمرة ، بينما هي خلق دائم لايفتر . التاريخ ، على راي المؤرخ « توينبي » هو حضارة لا اقل ولا اكثر . حضارة تنشا عن تحدي البيئة الطبيعية المستمرة للبشر ، واضطلاع الاقلية المبدعة في الامة برد الفعل على ذلك التحدي .

الاساس ان تكون لدى طائفة من القوم عقدة نفسية تراكم التصميم وتحفز دوما على التجديد . وتفكك الحضارة حتما حين تفتقد الاقلية المبدعة وتبقى تحديات الطبيعة دون ردود فعل .

وبالاستناد الى هذه الحقائق الواضحة يستنتج توينبي دستور ضعف الامم . فيقرر ان الغزو من الخارج لانال من الامة اذا كانت حضارتها مستمرة في النمو ، والحضارة تزول بالانتحار ولا تزول بالقتل .

قومية ام اممية

والحضارة اوسع نطاقا من القومية ، كما ان اشعاع الشمس ابعد مدى من الشمس . واذا كانت القومية لاتعارض مع تبادل الحضارات او تلاقيها ، فانها تآبى ان تحل الاممية السياسية محل الحضارة الانسانية .

ان من هبات التاريخ لنا اقامته البراهين تلو البراهين على ان الطلة القومية كانت ولا تزال اثبت ظاهرة اجتماعية .

منذ القديم ظهر عند الانسان النزوع الى العالمية سواء كان ذلك في المجال الحضاري والديني ام في الميدان السياسي . قامت الامبراطوريات في كل مكان على الارض ، تسلطت دول على دول وشعوب على شعوب ، فماذا كانت النهاية ؟

في كل مرة كانت الغلبة للقومية لا للعالمية السياسية . زالت من الوجود امبراطوريات الحث والفراعنة والفرس والمكدونيين والرومان والبيزنطيين والترك . ودالت امبراطوريات شارلمان وشارلكان ونابليون وهتلر وموسوليني . وستنقرض امبراطوريات مكملان ودغول ودون ظل من الشك .

ماذا بقي من جميع اشكال الحكم الاممية ؟ لا شيء . لانها ارتباط صناعي موقوت يفرض من الخارج بينما القومية ارتباط طبيعي دائم ينبع من الداخل . الانسانية العالمية لن تكون شيئا الا اذا كانت على اساس التوازن القومي والتعاون الحضاري اي التعايش الايجابي . ذلك ان القومية محبة والانسانية صداقة والاممية فرض مشيئة .

والذين يتوهمون ان اذكاء القوميات يزحج اركان السلم العالمي هم مغالطون ، لانهم يعرفون اكد المعرفة ، ان السلم العالمي مزحج الاركان بسبب اذلال القوميات . والمشفقون على الانسانية الذين يتمنون نسيان التاريخ ، ليسوا البشرية احقادها ويمهدوا للصلح بين شعوبها ، واهمون ايضا ، لان الذي يزيل الاحقاد هو التعرف على اسبابها ، والتاريخ هو سبيل ذلك . التاريخ وحده يكشف السوابق المرضية للانسانية المريضة ، وبذلك يعد التشخيص ويوجه الى الدواء .

انني مع القائلين بان التاريخ القومي المدون لدى جميع امم الارض لايساعد على ارساء الاخوة الدولية ، لانه مدون على شكل وحيد الطرف ، يكال فيه المجد كيلا للاصحاب ، وتجمع الذنوب والسيئات في كفة الخصوم والاغيار . هذا صحيح . ولكن ذلك تسميم تاريخي وليس بتاريخ . والسبيل الى ترسيخ المناعة ضد هذا النوع من التضليل هو ان يقوى الوجدان التاريخي عند المؤرخين .

ثالث التاريخ

وفي الحق ان التاريخ ثلاثي المعنى : هو اولا مجرى الاحداث بالذات وهو ثانيا تدوين تلك الاحداث . وهو اخيرا اجتلاء معناها وكشف اثارها في مصير الناس .

ونحن ، بالبداهة ، لانستطيع تبديل مسير التاريخ في الماضي ، ولا نملك ان نفرض سلوكا معيناً على من فات من الغابرين . ونحن ندون هذا السلوك وذلك المسير تقتضينا رجولة الامانة ان نتقيد بالحقيقة . ولا بد في التدوين من اصطفاء . وقاعدة الاصطفاء اختيار الاحداث ذات الاثر في حياة القوم والبشرية .

جيل القدر

أول قصة عربية ترسم
أصدق صورة لجيلنا ، في قلعه
وضياعه ... في أهله وأمانه
في نطقه للمستقبل البير ... في
فضاله لتعيقه وصيره ، إنه :

جيل القدر

الجيل الذي حقق قدره كاملاً

جيل القدر

قصة : وطاع صفدي

مؤلف

صدرت في : دار الطليعة - لطاعة القدر - توزيع : المركز العربي للتوزيع

وحياة البشر قبل بدء التاريخ تعتبر وجيزة ايضا اذا قيست بعمر الحياة العضوية - حياة النبات والحيوان - التي دامت نصف مليار سنة قبل خلق الانسان .

نصف مليار سنة ، هل لها محصول بالنسبة لنا ؟
لا شك .

هذه القواقع المتحجرة والهيكل المنطمرة ، والنباتات المتفحمة ، الراقدة اليوم في الاعماق تحت اقدامنا على شكل جماعات متميزة كانت تنبض بالحياة في يوم ما .

وكان بين القوقعة ومثيلاتها ، والسمكة واضرابها ، والفضن واشباهه ، كان هنالك ما يصبغ ان نسميه بالتجاذب الاجتماعي ...

كل بيئة لها مجموعة تتبعها ، فلا وجود للكائن المنزل ، ولا بقاء لمن يخرج عن المجموع . بيئة ، تماثل النوع ، حياة مشتركة .. الا يكفي كل هذا لان نتكلم عن وجود قومية متميزة لكل طائفة من جماعة النباتات والحيوان ؟!

علماء الاجتماع الحيواني والنباتي يؤكدون ذلك . ومن المشاهد ان الامر باق الى اليوم . الى اليوم للنحل قومية ، كما للنمل والفيلة ، ولأشجار لنخيل قومية ، كما للورود والرياحين .

الفيل الاسير في حديقة الحيوان يرمضه الحنين الى اهله ، والسنبلة الشاردة تنوي في حقول البقول والخضروات ..

لهزي تورم ..

الكاتب التحريري الكبير الذي
استمد غاندي أفكاره

السياسة من

كتابات وتأثير

بها .

يقدم لك



تتم:
٧٥
ق.ل.

معلومات : دار الشرق الجديد - بيروت
توزيع : الشركة العربية للتوزيع

وقد درجت في ايماننا هذه تعابير جاهزة تدعو الى الالتزام في الادب والفن وفي العلم والتاريخ وجميع صنوف المعرفة والابداع .

والداعون الى الالتزام يعنون به استجابة المفكر والعالم لضرورات مجتمعه ، والمشاركة في تسديده وتجديده والنهوض به . ولا اعتراض لي على الالتزام من حيث المبدأ ، بل قد اكون من اوفى مؤيديه ، ولكنني في تدوين التاريخ على وجه التخصيص لا ارى في الالتزام شيئاً اخر غير التزام الحياد والنزاهة .

اما الانتفاع بالتاريخ في اغراض التوجيه القومي والاجتماعي ، وفي تمرير النفوس بالحرية ودفعها الى التمرد على الظلم والاستعباد ، وفي غير ذلك من صور النبل والفضيلة ، فهذا هو الوجه الثالث من التاريخ ، اعني بذلك تفسيره وتخطيط محصلته وتكثيف عبره والسمو من جزئياته الى مغزاه الكلي الشامل ، على نحو ما صنعه ابن خلدون في مقدمة تاريخه ، وعلى نهج من تبعه في ذلك من الغربيين كشينجلر وبرديف وتوينبي وكارل ياسبرز وغيرهم .

هذه مرحلة مغايرة لمرحلة التدوين . في التدوين التقاط امين لمحصول الزمان بمثالبه ومحامده . اما المرحلة اللاحقة ففيها حكم على هذا المحصول وتقويم له وتفريق بين ثمراته الناضجة والفجة . ومآل هذا كله انتقاء بدور جيدة لمحصول جديد معجب .

فاذا كنا لاستطيع تبديل التاريخ في ماضيه فنحن بكل تأكيد نستطيع التحكم في آتية ، مستخدمين ذلك الماضي بالذات .

ان هذا الوجه الاخير من ثلوث التاريخ هو اجدرها بالاهتمام والصقها بمفهومه الاصيل . فلا جدال ان القيم في التاريخ هو عصارته لا عصوره ، وحديثه لا حوادثه ، وعواقبه لا تعاقبه . والتاريخ في اتجاهه التركيبي هذا ، المتجرد عن الزمان والمكان ، يلتقي بعض الطريق مع علم الاجتماع .

هذا المنهج الاستقرائي يرسم سبيلي في الشطر الثاني من هذا البحث .

التجربة اللاتاريخية قبل الانسان :

استمع المؤرخين العفو اذا بدأت التاريخ قبل التاريخ ، وجمعت الاضواء على البشر الاوائل ، بل والعضويات القديمة ، لان عناصر القومية والانسانية تكاد تكون اذلية الميلاد .

ان ما نسميه عرفا التاريخ لا يتجاوز في المدى خمسة الاف سنة ، ثلاثة الاف منها سابقة للميلاد ، وما قبل ذلك ضباب كثيف ، من وجهة نظر المؤرخين الوثائقيين على الاقل ..

وتحدد التواراة عمر الارض من لدن خلق ادم الى اخر الدهر بستة الاف سنة ، وانتقل ذلك الى تراثنا العربي ، فافاض الطبري مثلا في روايته والتدليل عليه . واذا تحققت تلك النبوءة تكون الحقبة التاريخية كلها متناهية القصر بالنسبة الى مئات الالوف من السنين التي استفرقتها ازمان ما قبل التاريخ .

قد يقال : ليس في الامر اكثر من ارتباط باجواء مادية .
ليكن .

ليس حب الوطن في الاصل ارتباطا بجو وارض ؟
ذلكم درس عظيم من دروس التجربة اللاتاريخية السابقة للانسان .
التجربة اللاتاريخية للانسان

ثم كان البشر على الارض .
ولسنا نعرف شيئا محققا عن طفولة الانسان الاولى . هل درج في
عش واحد ثم انساح انساله في طول الدنيا وعرضها ، ام كان لكل بقعة من
الارض آدمها الخاص بها ؟

العلماء يميلون مع ابي العلاء حين يقول :
جائر ان يكون ادم هذا قبله ادم على اثر ادم ...
والعلماء يميلون ايضا الى الظن بان نشأة البشر متعددة لا متوحدة .
ولا يعيننا الخوض في صحة هذه المزاعم او بطلانها ، وانما يعيننا
الوقوف على احوال الاجداد لنزن ما ابقوا للاحفاد .
وبقليل من التبصر نجد ان الحياة قبل بدء التاريخ مذهلة الفنى
بالعبر والمفاهيم .
من ذلك :

١ - ان الانسان منذ وجد ، شعر بالشبه بينه وبين مثيله الانسان

وبالفروق الضخمة التي تميزهما عن الحيوان .

فكانت هنالك معيشة متضامنة بين جماعات الناس ضد طوائف الحيوان
وعناصر البيئة الطبيعية . هذه الحقيقة التي آمن بها الانسان الاول هي
التفسير العقلي لما ورد في الكتب المقدسة وقيل الكتب المقدسة عن
قصة الخليقة : الانسان اخ للانسان لانهما يفترقان عن الحيوان ، آدم
وحواء رمز للمجتمع الانساني في تباينه الكلي عن الزمر الحية الاخرى .

٢ - مهما تعمقنا في اغوار ماقبل التاريخ نجد فروقا ظاهرة فسي
السلالات ، بيضاء وصفراء وسوداء ذات رؤوس عريضة او مستطيلة .
غير انه منذ ذلك الزمن السحيق تفاعلت السلالات وانتشرت التصلبات
بالتمازج والهجرات . فما يكاد يطل وجه التاريخ حتى تكون قصة العرق
الخالص اسطورة لا وجود لها في الواقع الا كحالات نموذجية .

وهكذا تكون ادوار ماقبل التاريخ قد حررت الانسان من تركيز العيش
المشترك على الخصائص البيولوجية الواحدة .

٣ - وقد حررته ايضا بعض الشيء من عبودية المحيط . بدأت
آلة عقله بالدوران فاستخدم الخشب وصقل الحجر واذاب المعادن ،
وغالب الطبيعة وبدأ ينقل من قيدها . ومآل ذلك انه اصبح من معاني
الوطن والقومية منذ ذلك الزمن الابدع - شعوريا اولا شعوريا : عصبية
الجهود المشتركة لقهر الطبيعة . وهل يعني هذا شيئا اخر غير الحضارة
او الثقافة بمعناها الاوسع ؟

فهما لا ارتياب فيه ان اول حرفة للانسان كانت سلبية ، تقتصر على
التبديد والاتلاف : اتلاف رأس مال الطبيعة بقطف ثمرها وحرق شجرها
وقتل حيوانها . لكنه انتقل بعد ذاب صبور الى مرحلة اجابية ، وهي
مرحلة الاستثمار ، باغناء الطبيعة عن طريق تربية الانعام وزرع الارض
والعيش من ريع رأس المال لا من استهلاكه .

خطوة عملاقة كانت اذن الخطوة التي جازها انسان ماقبل التاريخ
على درب الحضارة . وكان لنا في هذه الخطوة تعريف سليم للقومية : هي
المشاركة في الخلق والابداع للنهوض بمستوى العيش . فاذا استمرت
هذه الجهود المشتركة ثمر اجيالا واجيالا يتحصل من ذلك تاريخ
طويل ، تاريخ العرق المشترك والظفر المشترك . ولا شيء اتمن من ذلك
في توثيق العرى القومية .

٤ - تلك الحضارة الحابية عند اللاتاريخيين كان لها مقوم اخر : هو
الشعور الغيبي ومظاهره الخارجية .

نحن قد نهجل الاساسي عن عقيدة اجدادنا الاول ، لكننا نقسدر
استجابتهم لافاق ماوراء الطبيعة ، واستكانتهم للسحر واطمئنانهم الى
الظلام والتعاويد وتصورهم لنشأة الكون ونظامه .

اننا لانعدم حجة للحسد بان التدين على شكل ما عريق في الانسان .
والا فلن اهدى انسان المغاور تلك الصور الفنية الرائعة التي بقيت
منقوشة على الجدران الى اليوم ؟

الفن في خدمة الدين . كان هذا شعار الانسانية الاول ، وظل شعارها
حتى بداية العصور الحاضرة . ومقطع افقي للزمان قد يفني احيانا
كثيرة عن مقطع طولاني له ، اعني ان قياس الاحوال الغابرة بما يماثلها
من الاحوال المشاهدة من شأنه الوصول الى اجتلاء الماضي . والجماعات
التخلفة اليوم شأنها شأن المجتمعات الراقية ، تنتظمها مقدسات ومحرمات
وتصورات غيبية توجه السلوك الجماعي وتفرض قانونها على الافراد .

وسواء عبد الناس الشجر ام النبع ، العاصفة ام البحر ، الشمس

- التتمة على الصفحة ٧٥ -

دار الروائع بيروت تقدم
رائحة مكسيم غوركي
الطيردوت
نقلها الى العربية : الأريسي الكبير
جوج جبراق
كأقدم كتاب المتع الطيردوت :
قصور وآواخ
شاهد من الحياة الأميركية بأقدم نصي تروايا
الغربي ، رمانك تروين الأيركي ، وصبرج مرداد البري
ارأ في هذا الكتاب :
نبات الفواكه
نبات اللبنة
النبات التاكسي
مهازل الصحافة
مهازل الطباعة
مهازل الامتاع
اكواخ الترويع
الخ ...
تأليف من مكتبة النهضة ببيروت

التاريخ بين القومية والانسانية

- تنمة المنشور على الصفحة ٦ -

او القمر ، ام تساموا الى موجدتها ، فان المصدر واحد والفرض واحد . شعور بالضعف امام القوى الكونية ، وعجز عن تفهم الذات المعقدة الا بارجاعها الى القوى البارئة القديرة ، وانصهار للافراد في خشوع جماعي يوحد المشاعر والمصائر ويستدر الخيرات ويدبر المكاره . ولنا نعرض هنا لامر الدين انسياقا مع فلسفة اللسان ، وانما لان الدين ، اي دين ، كان عنصرا هاما في العملية القومية والانسانية .

وقد لاحظ « برغسون » تلازم الديانة مع المجتمعات جميعها دون استثناء ، وتساءل : كيف يضطر ذلك مع نمو العقل البشري ؟ وهو يجيب : ان الديانة هي ضرورة حيوية ، بل هي ملازمة للحياة نفسها ، انها جزء من « النزوع الحيوي » . ذلك ان الحيوان ينقاد اجتماعيا بفريزته وحدها ، اما الانسان فينقاد بعقله . وتخشى الحياة ان ينحرف العقل الى التوازع الفردية فيعطل المجتمع او يعوق مسيره ، ولذلك كانت الديانة رادعة للعقل ، رادة له الى الطريق الاجتماعي .

هذه « الديانة الساكنة » طبيعة مركبة في النفس تؤدي وظيفة اجتماعية وقد خلقت حين خلق العقل ولا بد ان تلازمه دائما .

ويقول « برغسون » ايضا : ان الانسان ، كل انسان ، قد يشك في كل شيء الا في الموت ، وحين يضع الموت المؤكد نصب عينه قد تفتت فيه دفقة الحياة وتخور عنده عزيمة البقاء . ووظيفة الديانة ان تسمو به الى آفاق خلافة حافظة ، آفاق الحياة الثانية .

لاشك اذن ان الانسان حيوان متدين ، ولذا فان الوظيفة التقديسية عنده وظيفة ازلية . والتجربة الانسانية السابقة للتاريخ كانت حتما متدينة قبل كل شيء ، متدينة بأي شيء ..

ان القصص الطريفة المحبوكة التي بقيت لنا من بداية عهد التاريخ ، والتي تملل الكون وما فيه فتزوج من تزوج من الكواكب مع الريح او الماء او الفضاء ، وتفرق من تفرق ، وفي كل مرة تنفلق البيضة عن اله ، اله حرب او اله حب ... ان كل هذه المجموعة من التصورات العلوية لا يمكن ان تنشأ في يوم واحد ، يوم عرف البشر الكتابة ودونوا التاريخ . ولا بد انها وليدة تخمر طويل في روع البشر السابقين ليوم التاريخ .

وحتى الشك في الدين هو في النتيجة نوع من التدين ، لانه فسي غالب الامر محاولة لتعويض آلهة بالهة اشد والوصول من ذلك الى الاله اقوى الاقوياء .

نستشف ذلك في عصور التاريخ من حيرة ابراهيم التي قصها علينا القرآن الكريم في سورة الانعام :

« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربي ، فلما افل قال لا احب الافلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لآكونن من الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا اكبر ، فلما افلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون » .

اعود الى انسان ما قبل التاريخ لاقول مرة اخرى انه كان شاعرا بانسانيته ، ينتسب الى مجموعة من الاقربان يستفلون بقعة واحدة من الارض ويؤمنون بقوى واحدة في السماء ويتعاونون فيما بينهم على مقارعة الطبيعة في عتوها والكاسر من الحيوان في غائلته ، اتراني اسرفت في التمدح به ، انسان ما قبل التاريخ ، ونسبت اليه مالم يتوافر فيه ؟

الامر الذي لاشك فيه هو انه تميز عن الحيوان منذ البداية ، فتعامل الرجل مع جاره الرجل واشتركا معا في مهمة الحياة دون ان تفسد بينهما غيرة الجنس والرغبة في الاثى . والظنح الحيواني على فريزته الاجتماعية لا يستطيع ذلك ، ويكاد يتناثر تماسكه الجماعي في موسم الشوق الى الجنس الاخر ..

٥ - قد اخرت عن عمد العنصر المفروض بالبداية ، وهو عنصر التفاهم بالاصوات ، اعني اللفة ، فاللفة منضافة الى الحركة العضلية ، تكمل طقوس العبادة سواء كانت صراخا مدويا ام ترانيم او تمتمات ، وباللفة يتم الجهد المشترك سواء كانت اصواتا بسيطة معبرة ام تراكيب طويلة معقدة . واذا كان الماضي يقاس بالحاضر ، فبشر ما قبل التاريخ ، كالبدايين في مجاهل افريقيا اليوم ، كانوا يتكلمون لهجات لاتحصى كل لهجة تعين حدود قومية من القوميات ..

وانه لمن العسير ان نوازن بين ركائز الاجتماع في بنوره الاولى ، وان نعطي الوزن الاوفى لعنصر ما قبل اخر في نشأة الجماعة اللاتاريخية : هل هو التساند في تأمين الغذاء والكساء والمأوى ، ام التعارف بالاصوات ، ام التآلف في ظل المقدسات ؟ الحق انها كلها عناصر ذات وزن ، ثم انها متداخلة متشابكة . والعنصر المادي ليس اخفها . وبهذا الوجه يجب ان نفهم ابن خلدون حين يقول :

« ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهن من العاش ، فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله وابتداء بمسا هو ضروري منه » ...

لعلنا قد ورننا ، دون ان ندري ، الكثير الكثير عن الذين لم يخلدهم التاريخ ، ورننا عنهم هيكل البناء الذي ستسبغ عليه الازمان المقبلة الطلاء الخارجى ، وتوسع او تضيق من حجراته وتزودها ببعض الاثاث الجديد فلنقوم الان ماترك لنا المؤرخون .

الدولة والقومية في فجر التاريخ

ولست ازمع ان اقوام ما قبل التاريخ قد عبرت كلها باب التاريخ ، وحملت معها رصيدها الاجتماعي . فالواقع ان بعض السلالات التاريخية قد باد ، وبعض الجماعات انقرط عقدها ، واكثرها قد نوح عن مهده الاصيل وجرى على سطح الارض توزيع جديد للبشر بفعل الهجرات الجماعية التالية لتبديل المناخ .

الا ان الجماعات التاريخية لم تلد من العماء ، اقصدا انها لم تتكون عن غير اجداد ، ومع ارنها العضوي اللاتاريخي اخذت المكتسبات والقومات المتحصلة في الدهر السحيق .

كان هنالك اذن مرور اجتماعي الى التاريخ .

واذا رجعنا الى القليل الذي جاد به علينا علماء التاريخ عن احوال الدول الاولى ، وجدنا في قصة القومية والانسانية بعض الجديد فسي التفرعات والتفاصيل ، وفي بلورة عدد من المظاهر ، كانت سديمية من قبل .

من ذلك :

١ - ان الدول المنظمة اصبح لها ارض معينة ذات حدود بيئة لها صفة القدسية ، ويتعبر اخر ، ان الجماعات المنقلة لم تكن تمنح ارض الوطن المعنى العميق الذي اصبح له في نفوس الجماعات الثابتة . فالوطن - بمعناه الترابي ، ومن حيث هو مستقر للقومية - اضحى في الكانة بمنزلة العبادة ، وبمرتبة لفة التخاطب وتراث الحضارة .

وقد ذهب بعض الدول في حماية حدودها الى حد اقامة الاسوار

الديموقراطية الحديثة على فصل الدين عن الدولة تعمل في نفس الوقت على الغاء ما كان تابعا لذلك اي نظام الطبقات .

النزعة العالمية والامبراطوريات الاولى

ولامر ما لم يستغرق عهد الدول الاولى زمنا طويلا من عمر التاريخ . ومنذ الالف الثالث قبل الميلاد - بل وقبل ذلك - عم الدنيا نظام الامبراطوريات .

ولقد ذكرت عن اقوام ما قبل التاريخ انهم مروا من مرحلة التبديد الى مرحلة الاستثمار في انتفاعهم بالطبيعة ، اما اقوام التاريخ فقد دخلوا في مرحلة ثالثة ، وهي استثمار شعب لشعب ، اي الاستثمار .

ولا بد ان تسائل لماذا تسيطر دولة على اخرى ؟

هل السبب مادعاه الفلاسفة : النزوع الى العالمية اي استمرار نزعة التعميم والتوحيد ؟ او حرص الاقوياء على افادة الضعفاء بقم المدنية ؟

ام لسبب هو المجد وحب المفامرة عند الحكام ؟

ام اخيرا الرغبة الملحة في السيطرة على موارد جديدة ؟

لنتسرك الاجابة للتاريخ .

الفيلسوف الانساني ارسطو ينصح الاسكندر بتوحيد العالم ونشر آلاء الحضارة الهلينية فيه ، وقد يكون المعلم الاول مدفوعا بعامل النزوع الى العالمية الانسانية ، اما الاسكندر فانه يتخذ من ذلك ذريعة لارضاء حاجات التوسع عند الاغريق المحصورين في رقعة جبلية ضيقة . والحثيون في هضابهم القاحلة كانوا ينظرون الى الفلات الزراعية الوفيرة عندما عزموا على الهبوط نحو بلاد الهلال الخصيب .

والفراعة لم يكن الهدف من بعوثهم العسكرية الى الشام غير الخشب والماز والفنم ودنان الزيت والخمر ، والفضة والحديد والجلود وما شابه ذلك .

وقد تبدو لدى الفاتحين رغبة في نشر لفة او تعميم دين او بسط الرخاء والامن .

الاسكندر بذر المستوطنين المقدونيين في المدن الكثيرة التي انشأها لكنه لم يكن يرمي من وراء ذلك الا امتصاص قومية السكان المحكومين . وقد فشل في ذلك .

والفرعون امحوتب الرابع بدل ديانة اجداده ، ونبد الاله القومي آمون واحل محله الها اضى عليه صفة العالمية وهو آتون ، وانتسب اليه فدعا نفسه اخناتون وكان يقصد عن طريق الدين الى توطيد حكمه في الامبراطورية المصرية الواسعة .

والرومان جعلوا شعارهم في الفتح والتوسع : السلم العالي . السلم العالمي بقيادتهم ولنفعتهم وحدهم ..

يصف المؤرخ الروماني « ارسطيد » ذلك السلم الروماني لمواطنيه فيقول لهم :

« من كافة جهات الارض تحمل اليكم منتوجات كل موسم . واذا رغبتهم في مشاهدة هذه المنتوجات ينبغي ان تطوفوا حول العالم او تقيموا في روما . انكم واجدون في روما ، كل اونة وبمقادير وفيرة ، جميع ماتجود به الطبيعة او تخلقه الصناعة لدى شعوب العالم اجمع . ففي كل فصل من السنة ترسو السفن على ارضة التيبير حاملة لروما من السلع ما يجعلها سوق الدنيا ، ان ثمار الهند وبلاد العرب السعيدة لغزيرة عندهم حتى يظن انها قطفت كلها لكم . واذا شاء الهنود والعرب اقتناء منتوجات ارضهم وجب عليهم ان يجلبوها من لديكم .. »

ان النزوع الى العالمية قد اخذ في ظل الامبراطوريات القديمة شكلا

النيعة في الجهات التي تخشى منها زحف القوميات الاخرى عليها ، كسور الصين الكبير والسور الشرقي لدلتا النيل .

٢ - ازدادت فاعلية اللغة في الترابط القومي باكتشاف الكتابة ، وبالتالي تسجيل المشاعر والتقاليد الجماعية بالحروف اضافة الى الاصوات والنقوش والتماثيل .

٣ - انصهرت الديانة في الدولة ، واصبح لكل مجتمع مستقل دين قومي مستقل الى جانب اللغة القومية . حتى ليصح القول بان تاريخ الشعوب القديمة كلها ليس الا تاريخ دينات تلك الشعوب .

وجاءت الكتابة عونا على دمج عامل اللغة بعامل العبادة ، فظهرت الكتب القومية المقدسة كالفيدا عند الهنود والافستا في ايران ، والتوراة عند العبرانيين .

ولا بد ان تترت بعض التريث عند ظاهرة انصهار الدين في الدولة ، لان هذه الظاهرة ستخط تاريخ القوميات الزمن الاطول .

فلنا ان الانسان حيوان متدين منذ البدء ، وهو حيوان سياسي منذ البدء ايضا ، ومنذ اعرق الازمان عرافة نجد التمافر بين الدين والحكم .

خطان برزا منذ الخففة الاولى في حياة البشر :

خط الانتقال في التماسك الاجتماعي من الاسرة الى القبيلة والرهط فدولة المدينة ثم دولة الامة .

خط الانتقال من العبادة القبلية والطمونية الى عبادة الارباسب المحلية ثم الى عبادة الرب او الارباب القوميين ..

خطان متوازيان في كل منهما نزعة الى التعميم والتوحيد .

ولكنهما التقيا بعد قليل وشكلا خطأ واحدا .

قد لايمكن ان نفتتن بنظرية التعاقد الاجتماعي التي ركبها « روسو » وغيره من الفلاسفة ، وجعلوا فيها نشأة الحكومات الاولى من صنع

الاتفاق الطوعي بين الناس . على ان ظلا من حقيقة يتبقى لهذا الغرض . في عصور الانسانية المبتدئة قدس البشر القوى المحيية الخارقة

في الكون . وكل انسان تميز بالقدرة العضلية والقوة البدنية والشجاعة في قهر الحيوان المفترس والمهارة في اصطياد القوت ، هابه الاخرون

واطعموه واحاطوه بمظاهر التجارة ومراسم التبرجل .

في القديم وامم الادميون بين السحرة والحكام ، بين القوة الفيبية والقوة الانسانية وجمعوا بينهما ، فصنعوا للحكام الاقوياء نسبا آلهيا ،

او على الاقل توهموا فيهم تجسيد الارباب على الارض .

وعندما تسمو المدارك البشرية وينزه الناس الهتهم عن التجسيد ، يتسرك الحكام شكلا اخر من اشكال التاليه ليربطوا دوما بين الدين

والدولة ، فيطعمون على رعاياهم بنظرية الحق الالهي ، التي تجعل من الملوك طائفة اختارها الله لتنفيذ اوامره واقامة شعائره .

منذ بزغ التاريخ ، اتحد التاج والقلنسوة ، في اذهان الناس وفي نفوسهم ، وارتبط الصولجان بالليلسان .

وسترى بعد قليل كيف ينغمس هذا الزواج في بعض البلدان خلال العصور الحديثة .

٤ - كان من نتائج الشائبة المدنية والروحية في قوام الحكم ، انه تجمع حول الحاكم نفران من الناس : المحاربون الاقوياء الذين يشدون

حكمه بالسيف ، وسدنة الدين الذين يازرونه بالصلاة . النبلاء من جهة والكهنوت من جهة . ومهمة سائر افراد الامة العمل لاعالة المحاربين

والصلين . نوع من تقسيم العمل في المجتمعات الاولى . وفي كل ذلك كان هنالك تطابق تام بين الدولة والامة او الشعب . وحين تكمسل

التسلط بالقوة ، لارضاء مطامع اقتصادية محضه ، وهو عين الشكل الذي يتخذه الاستثمار الحديث .

ولعلنا نصدق فلاسفة النزوع الى العالمة الانسانية حين نقرأ صفحة اخرى من صفحات التاريخ القديم ، تلك الصفحة التي سماها « كارل ياسبرز » : العهد المحوري للتاريخ :

حول القرن الخامس قبل الميلاد فتحت في بقع عديدة من العالم باقة من الفلاسفة والمصلحين ، اردادوا تعميم انسانية الانسان وتحرير البشرية من الشرور والاثام . وضم هذا العهد المحوري امثال كونفوشيوس ولاوتسه في الصين وبوذا في الهند ، وزرادشت في فارس وهوميروس وافلاطون وغيرهما في بلاد اليونان ..

التجربة المسيحية

والتجربة المسيحية في عهدها الاولى مثال رائع على النزوع الانساني الى العالمة .

انتشرت المسيحية دون تسلط ، بل قامت ضد التسلط ، وقدمت الشهداء على منبج الايمان الخالص . وطالما لم تحاول امتصاص القوميات تقبلتها تلك القوميات بصدر مفتوح . وبتعبير اصح تغلقت الشعوب عن دياناتها السابقة بدافع النزوع الى التوحيد ، ولكنها لم تتخل باية حال عن لغاتها . ثم ماذا حدث ؟

حدث ان الملوك بنوا المسيحية ، كما بنوا الديانات الاخرى من قبل ، وقرنوها بحكمهم ، وجعلوا منها آلة للتسلط الداخلي والخارجي .

مثال واحد استمدته من « جان دوشه » في كتابه الطريف « تاريخ فرنسا كما قصته جوليت » ، يقول : « آلى الملك شارلمان ان يدخل السكسونيين في نعمة المسيحية ، فخصهم باربعة وثلاثين حملة عسكرية . واني لاتسائل فيما اذا كان قد اراد اخضاعهم من اجل تميمهم ام تميمهم من اجل اخضاعهم ...

والذي حدث انه اردف بجيشه ما استطاع حشده من القساوسة والرهبان ليجعلوا نيره اقل مرارة ... »

وحدث ايضا انه حين جرب الاباطرة والملوك قهر القوميات باسم الدين المسيحي ، ثارت القوميات باسم الدين ايضا ، وحاربت المستلطين بسلاحهم . على هذا الوجه يفهم التاريخ الهرطقات والبدع التي انتشرت في كل مكان من الامبراطورية البيزنطية ، لهذا الفرض القومي كافح اربوش ونسطور ويعقوب البردعي وعشرات غيرهم لا لاختلافهم مع القياصرة على قضايا ناسوت ولاهوت ...

والبروتستانتية في المانيا وسويسرا وبريطانيا وغيرها من بلدان اوروبا هل كانت في حقيقتها شيئا اخر غير التعبير عن قومية الشعوب ورفض انصهارها في الروح اللاتينية ؟

ثم ان الكنيسة المسيحية ، بالاضافة الى تعصيدها الملوك على الشعوب اصبحت تنعم بثروات ضخمة ، وتملك الارضين الواسعة ويعيش سدنتها معيشة الامراء المترفين .

لكل ذلك تكون رأي عام لايدافع ، يطالب بفصل الدين عن الدولة ويعني هذا انزال العبادة الى المرتبة الفردية في التكوين القومي وتجريد الحكومات من قوة الدين . والثورات الديمقراطية هي التي حققت هذا التبدل . وفي حصر الدين في نفوس الافراد صيانة له من عبث الحكومات .

التجربة الاسلامية

والاسلام ايضا يمثل النزوع العالمي الانساني باجمل معانيه . وذلك

لانه دعوة خالصة الى التوحيد فهل انتشر الاسلام بالقوة وعلى جلدت ابقوميات ؟

فيل ذلك .

ولكن عملية حسابية بسيطة تبطل هذا الزعم .

عدد المسلمين في العالم اليوم نحو 400 مليون ، كم منهم اعتنق اجدادهم الاسلام بحكم الفتح والاستيلاء ؟

هل حكم العرب المسلمون اندونيسيا وسيلان والملايو والهند الصينية وبرمانيا وسيام وافريقيا السوداء ؟

هل دخلوا فاتحين الى الصين ؟ هل كان لفتوحاتهم مدى يذكر في الهند والباكستان ؟

اذا احصينا سكان هذه البلاد نجد انهم لايقولون عن نثي مسلمي العالم .

ومن الحقيقة التاريخية ان الاسلام قد لقي النجاح الكامل من حيث هو دعوة روحية ، ولكنه لم ينشر القومية العربية في ايران وافغانستان وتركيا والقوقاز وازربيجان وبلاد التركمان والاوزبك والقرغيز والكثير من البلاد الاخرى ذات القوميات الراسخة .

فلماذا نجح الاسلام دينيا وقوميا في حدود الوطن العربي القائم اليوم ؟ لنذكر اولا انه لم يحارب شعوب هذه المنطقة وانما حارب حكامهم، البيزنطيين الفرساء .

ولنذكر ثانيا ان اقوام المنطقة قد تلقوا المسلمين كمنقذين لا كفاتحين . ولنذكر اخيرا ان الاتصال الثقافي والاجتماعي كان موجودا بالفعل بين العرب واولئك الشعوب قبل الاسلام .

لهذه الاسباب نجحت هنا الدعوة العربية في كنف الدعوة الاسلامية . وقد تجنب الاسلام في بيئته الاصلية ان يفسح المجال لاستغلال الدين من قبل كهانه ، فلم يخلق طبقة كهان ..

وحل بالاسلام محل المسيحية . حاول الاتراك باسمه ان يقتلوا القوميات ، فقتلتهم القوميات في النهاية . واصطنعوا طائفة من المسلمين على شكل اكليروس ، فكان ان نفر الناس من حكمهم لهذا السبب ايضا ، فطالبوا بفصل الدين عن الدولة ليتبها لهم محاربة الدولة مع الحفاظ على قدسية الدين .

الديمقراطية والاستعمار والاممية الجديدة

ليس لي ان اختتم هذا المقال ، دون ان ارسل بعض السهام السمومة الى هذا الضرب من الديمقراطية الحديثة التي تقصم ظهور الشعوب بوقر استعمارها . لم هذا التلازم بين الديمقراطية والتسلط ؟ مع نشأة النظام البرلماني في انجلترا بدأ استعمار الهند . والمملك الديمقراطية الفرنسي لويس فيليب ارسل حملته المشؤومة على الجزائر العربية ، ومن قبله نادت الثورة الفرنسية بالحرية والاخاء والمساواة ، وعانت في اوروبا ، وانتهت ممالك واذلت قوميات ، ومن بعد ذلك امعنت الجمهورية الثالثة والرابعة والخامسة في سفك دماء الشعوب واغتصاب قوتها ...

هل كل ذلك ايضا تطبيق لمبدأ الوحدة والشمول ؟ ..

نعم . شمول الجشع ووحدة النهب والتدمير .

الديمقراطية في بلادها اطلقت العنان للطاقت الشعبية المكبوتة ثم عجزت عن ضبطها ، فشقت لها اقنية نحو الاستعمار .. خشيت الديمقراطية على نفسها من الديمقراطية فالتفتها عن نفسها بغيرها ..

وشكل اخر للديمقراطية يحمل لواء الاممية .

العناصر المذكورة تدخل كلها في التراث الاجتماعي بنسب تزيد أو تنقص .
والقومية هي التراث الاجتماعي .

قد لا تكون الولايات المتحدة الاميركية امة بالمعنى المتعارف عليه . لانها دولة تضم عناصر بشرية من قوميات مختلفة المهاد ، وقد يكون التحدث عن امة بلجيكية او امة سويسرية ضربا من خداع التاريخ . هنا تعايش ارادي طويل الامد ينتهي بمنح الدولة بعض القومية من مفومات . ولكن الولايات المتحدة وسويسرا او بلجيكا لاتصلح مثلا على امكان تحول القوميات الى اومية بلا قوميات . حدث هنا تعاقد اجتماعي بالفعل من اجل بناء الدولة . غير ان لكل دولة منها ظروفها استثنائية خاصة . ففي امريكا وحد بين الانجليز المتأمركين الفرار بالدين الى ارض لا يظهد دينهم فيها ، ولما وفدت عليهم جموع المهاجرين المتوعين الطامعين بالذهب طبعهم الانجليز الامريكيون بطابعهم الغالب ، بذلك سيطرت على المجتمع الحديث لغة واحدة وحضارة واحدة ومشينة واحدة للعيش المشترك ، وهي عوامل كافية لقيام دولة واحدة ، وفي المستقبل لنشوء امة واحدة .

وفي سويسرا امان وفرنسيون وايطاليون ، وكان ادنى الى مفهوم القوميات ان ينصاف الالمان الى دولة المانيا والفرنسيون الى دولة فرنسا والاطاليون الى ايطاليا . والواقع انه لم يحدث هنا انصهار قومي ، ولم يخلط عنصر على اخر ، وبقيت كل قومية شبه مستقلة سياسيا في ظل الاتحاد الفدرالي . والواقع الذي حمل المتجاورين السويسريين على التوحد السياسي المخفف هو اشتراكهم في بيئة جبلية صعبة تقتضي التضامن على ترويضها وتسخيرها لمنفعة المتشاركين .

وفي بلجيكا ايضا لم تنصهر قومية « الوالون » بقومية « الفلامان » ، وانما حدث بين الفريقين تواطؤ سياسي على العيش معا ، لتداخل العنصرين في اكثر من موضع على ارض بلجيكا ، بسبب الظروف التاريخية القديمة . وقد اعان على استبقاء هذا الوضع الشاذ رغبة انجلترا التاريخية في خلق دولة على بحر الشمال تقف بينها وبين المسدس المحبوب الى قلبها من فرنسا ..

اعود مرة اخيرة الى التراث الاجتماعي لامثل ببعض مظاهره فسي
دنيا العرب :

الشاميون الذين هاجروا الى امريكا ، بقيت افئدتهم عربية ما بقيت السنتمهم عربية ، وبالتالي طالما صانوا التراث الاجتماعي العربي الذي حملوه معهم . ولكن الاجيال الجديدة المولودة في المهجر تصبح امريكية حتما - وقد اصبح الكثير منها - حين تفقد ذلك العين .

واللغة العربية صانت الامة العربية اربعة قرون في ظل الحكم التركي مع انه حكم اسلامي .

وفي الجزائر يلم الدين الاسلامي عزائم المجاهدين ، لانه المقوم الابرز في صلب تراثهم الاجتماعي .

بهذا التراث يصمد اخواننا الابراء في الصرود والوهاد والسهول قبالة العدو الاجنبي .

فلتكن خاتمة المقال تحية عربية ملؤها الحب والاكبار لهؤلاء القديسين نسور القمم في تاريخ القومية العربية .

ولتكن اخر كلمة لنا : قومية كل امة تعني قبل كل شيء وحدتها السياسية . وليس قومية عربية بل ليس عربيا ابدا من يقبل بالقومية المفككة الى وحدات سياسية منعزلة . (✕)

عزة النص

دمشق

(✕) محاضرة القيت في المركز الثقافي بجنيف

بدلا من قومية اللغة والحضارة والدين ، يريد ان يخلق رابطة الصراع بين الطبقات في جميع القوميات . من رابطة الصراع وحدهما يحاول ان يقيم مجتمعا عالميا متزنا متحابا مترابطا فماذا صنع ؟
لم يستطع اقتحام حصون القوميات فدار حولها .

تبتت بعض الحكومات - ولا اقول الامم بل ولا الدول - العقيسة الشيوعية ، ولكنها اضطرت ان تضعها تحت ابط قوميتها . البولونيون لا يزالون يعتزون ببولونيتهم وبالتالي لا يزالون يحرصون على الاستقلال ، وكذلك الهنغاريون والرومانيون واليوغسلاف والصينيون .

وفي الاتحاد السوفياتي قومية روسية راسخة مهيمنة ، تفرض سلطانها على مائة وثمانين قومية اخرى ، تماما كما كان الامر في عهد القياصرة ... ولا عبرة بوجود المجالس والجمهوريات اذا كان الوحي القيادي ينتزل على الروسيين وحدهم وباللغة الروسية وحدهما ..

الدولة والامة والتراث الاجتماعي

في اخر مؤلف لاستاذنا الكبير ساطع الحصري « ماهي القومية » رُوذ لعوامل القومية حسب درجتها في التأثير : لغة ، مشينة تعايش ، مصالح اقتصادية ، وحدة دينية الخ .. وكل ذلك معالج بيد خبيرة واعية . والذي اراه ان واقع التاريخ يحملنا على شيء من الاحتراس ، فليس لاي اثر قيمة مطلقة في جميع الظروف والبيئات ، وحسبنا القول بسان

منشورات
دار السرائح
ببيروت

أنت مطالب بأن تضم هذه الكتب الى مكتبتك
فالكتاب اذن ، تعاليم عمير للحركات الفكرية والنظرية
في الاسلام ، وما كان لها من اصدرو في الشرق والغرب .
والثاني ثورة في فلسفة السياسة والاجتماع ،
ونظريات ترويض العالم بأسره اليوم .
والثالث خدعة تجارب غاندي وفلسفته
ونظرياته ، وهو يغني عن المجلدات .

من تاريخ الحركات الفكرية
في الاسلام

بندلي جوزي

اللاعنف
ثورة الانسان في سبيل العالم الجديد

اشاريا فينوبا

سائل غاندي
الى حلقته المبرهن

المهاتما غاندي

تطلب في العبرات من مكتبة النهضة ببغداد